

إحياء علوم الدين

وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها أعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفصها كحلاوة الخوض فيها وهيئات فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد وقد كتب علي B إلى سلمان الفارسي بمثلها فقال مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها فأعرض عما يعجبك منها لقله ما يصحبك منها وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعثها بعد الخوض فيها قال رسول الله A إنما مثل صاحب الدنيا كالماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه // حديث إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال بلغني أن رسول الله A قال فذكره ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس // .

وهذا يعرفك جهاله قوم طنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها فكما أن المشي على الماء يقتضي بللا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة .

قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم إن الدابة إذا لم تركب وتمتحن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة وقال النبي A إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خث أعلاه خث أسفله // حديث إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات // .

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق قال رسول الله ﷺ مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع // حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف // .

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة كشهوات الأطعمة في المعدة وسجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها وكما أن الطعام كلما كان ألد طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعة أقدر وأشد نتنا فكذا كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فنتنها وكراحتها والتأذي بها عند الموت أشد